المطريّة وآثارها المسيحيّة

للاب يوسف خليل البسوعي (تتمّة)

قلنا ان وجود نبع في بقعة من الارض تبعد عن الجبال ويعزّ فيها المطر لأمر مُستغرَب ولربَّ معترضٍ يقول: ومن يتعهّد لنا ان في المطريّة نبعاً؟ فالاقرب ان مياه هذه البئر تسرّبت من النيل واجتمعت هنالك منذ القِدَم

فنجيب اننا نرتأي وجود نبع اصليّ في المطريّة كان يقوم بذاته ولا علاقة لهُ مع مياه النيل. ورأينا هذا ندعمهُ بادلّة شتّى منها ان سكان القطر يدعونهُ عيناً ونبعاً وهو اسم لا يُطلق على الآبار. ومنها اقوال الكتبة والسيّاح منذ الاجيال السالفة (١. واما الآن

١) تستأذن القرّاء الكرام بايراد ما كتبهُ في هذا الصدد اثنان من سيّاح القرن الخامس عشر وهما برنردوس دي برِيدنباخ وقد طُبع كتاب سياحتهِ سنة ١٤٨٦ وفيلكس فابري الذي بقي كتابهُ خطّاً الى سنة ١٨٤٨. فان كلامهما يضمّ شتات التقاليد القديمة ويوقفنا على ما كان يتناقلهُ الناس عن المطرية في تلك الايام. قال بريدنباخ: «وصلنا المطرية في غرة تشرين الاول فوجّهنا من يخبر صاحب القاهرة عن عزمنا بتفقُّد بلادهِ والاطّلاع على محاسنها وغرائبها فبعث الينا ترجماناً وبعض الخدم والجنود وسألنا الذهاب اليهِ من ساعتنا فآثرنا الاقامة يوماً في المطريّة طلبَ الراحة بعد ما قاسيناهُ من مشاقّ البادية فلبّى سؤلنا لكنّهُ رغب الينا ان نرسل اليهِ احد اتباعنا وكان يُحسن الضرب على العود ثم انزلنا في دارٍ رحبة لهُ في المطرية تحيط بها حديقة فيها نبع العذراء وغراس البلسان وعلى مقربة من النبع حوض كبير يستطيع الاغتسال فيهِ نحو ثلاثمائة رجل. ومن هذا النبع شربت العائلة المقدسة وهي ينبوع كل نعمة ورحمة لانهُ يقتضي التقاليد القديمة التي توارثها اجدادنا من جيل الى جيل فرَّ القديس يوسف امام البغاة المضطهدين واتى بالطفل يسوع وامهِ الى مصر ومام على وجهٍ حق وصل الى المطرية. ولمّا ظمئ سأل الاهلين جرعة ماء فضنّوا عليهِ بها وكانت العذراء تستظلّ تحت شجرة واذ ذاك تفجّرت مياه نبع قدّام العائلة المقدسة فشربت منها. وهذه المياه تسقي الآن مغارس البلسان وبدونها لا تنمو. واممنا النظر في النبع فاذا هو عبارة عن بئر عميقة تُخرَج منها المياه بآنية شدّت على دولاب فعجبنا من امرها وقيل لنا ان قاطني المطرية رغبوا بزيادة المياه الجارية من النبع فحفروا لها جبًّا عميقاً فتدفّقت المياه بغزارة اذا لم تجد سبيل الى الخارج من تلقاء ذاتها فاستعملوا لها الدواليب. وتجاه البئر حوض من رخام بقربهُ وامام الحوض طَنَف فيهِ سراج يُسرج اكراماً للعذراء الطاهرة وقد رأينا سكان البلاد على اختلاف معتقدهم يبالغون باكرام هذا المقام ويتفانون بايقاد السرج فيهِ ولا يصبرون ان يمدّ احد اليها يداً اثيمة». وقد اتت هذه الرواية مؤيدة لما دوَّنهُ المقريزي في كتاب الخطط اذ قال: «وسمعت انهُ لو حُفرت هذه البئر لوُجد النبع في اسفلها»

فاننا نجهل ان كان النبع المذكور مستقلًا بذاته كما سبق القول او اختلط بمياه النيل وما يدفعنا الى الارتياب هو انهُ يكاد لا يختلف عن الآبار المجاورة فمثلها ترتفع مياههُ لارتفاع النيل وتنحط لانحطاطهِ . اما اذا كان باقيًا على حالتهِ في ايام السيد المسيح فاننا نجاهر بامتزاجهِ بمياه النيل لان مجرى النهر وسطح اراضي المطرية ارتفعا ارتفاعاً يُذكر (١ . وقد حقَّق العلماء ان المياه المتسرّبة من القُنيّ والجداول والنيل تغير الآن من الارض تلك الطبقة التي كانت وجهًا للبس في عهد الخلّص . ونبع المطرية في عصرنا هذا عبارة عن بئر حقيرة لا تمتاز عمَّا سواها (٢ ولم يبقَ اثر لحوض الرخام الذي وصفهُ القدماء لكن الشعب المسيحي ما زال ولن يزال ينظر بعين الاعتبار والاكرام الى هذا الاثر لانهُ يذكرهم بمرور ابن الله في بلاد مصر

﴿ حديقة البلسان ﴾ عُرفت المطرية منذ القدَم ببلسانها ولم تزل الى ايامنا تُدعى بحديقة البلسان وان لم يبقَ فيها اثر لشجرتهِ الثمينة . زعم المؤرخ يوسيفوس (٣ ان ملكة التيمن اهدت الملك سليمان شجيرة لم تكن اوانئذٍ معروفة في اليهودية فكثرت واخذت تدرّ على اهل البلاد بالارباح ويُقال انها شجرة البلسان . واخبر بعض المؤرخين ان الملكة كليوبترة نقلت اشجار بلسان حديقة عين جدي وامرت بغرسها في المطرية فلم يزكُ نبتها الى ان جُرَّت اليها مياه نبع العذراء . وذهب الكتبة الاقدمون ان لهذه المياه خاصيّة في نبت البلسان وذلك لان السيد المسيح انمها وشرب منها واستعملها لحاجاتهِ . قال القزويني في آثار البلاد (ص ١٨) : « المطرية قرية من قرى مصر عندها منبت شجر البلسان وبها بئر يُسقى منها قيل انهُ من خاصيَّة البئر لان المسيح عليهِ السلام اغتسل فيها . » واضاف ياقوت الحموي (٤ الى هذه الرواية ما يلي : « استأذن الملك الكامل اباه العادل ان يزرع شيئاً من شجر البلسان فأذن لهُ . . .

---

١) اتخذ العلماء مسلَّة عين شمس (Héliopolis) مقياساً لهذا الارتفاع فاذا به بلغ مترين وستين سنتيمترًا مدة ١٩ جيلًا . واما ارتفاع مياه بئر المطرية الآن فانهُ يتراوح بين مترين وخمسة وثلاثين سنتيمترًا واربعة امتار وخمسين سنتيمترًا

٢) يقال ان مياه هذه البئر اعذب من مياه الآبار المجاورة وان كانت لا تخلو من الملح

٣) اطلب كتابهُ في العاديات اليهوديَّة (ك ٨ ف ٢)

٤) انظر معجم البلدان (٤ : ٥٢٤) من طبعة ليبسيك

فزرعهُ في ارض متصلة بارض البلسان المعروف فلم ينجح ولا خُلص منهُ دهن البتَّة . فسأل اباهُ ان يُجري ساقيتهُ من البئر المذكورة فانجح واقلح . »

وقد وصف المؤرخون شجرة البلسان فقالوا : « البلسان يشبهُ شجر الحنَّاء والرمَّان في اول ما ينشأ (١ . » « وارتفاع شجرتهِ نحو ذراع واكثر من ذلك وعليها قشران الاعلى احمر خفيف والاسفل اخضر ثخين واذا مُضغ ظهر في الفم منهُ دهنيَّة ورائحتهُ عطرة وورقهُ شبيهٌ بورق السذاب . » (٢ وقال ابن البيطار الاندلسي (٣ : « للبلسان ورق شبيه بورق السذاب غير انهُ اشدّ بياضاً بكثير وادور ورقاً ويكون في بلاد اليهود فقط (٤ في غورها وقد يختلف بالخشونة والطول والدقَّة . » وروى بعض مَن زاروا المطرية في القرون الخالية ان صاحب مصر لا يُقيم على غرس البلسان والاعتناء بهِ الَّا المسيحيين والظاهر انهم انفردوا بمعرفة طرق جناهُ وطبخهِ . قال ياقوت : « وهناك رجل نصرانيّ يطبخهُ بصناعة يعرفها لا يَطَّلع عليها احدٌ ويصفّي منهُ الدهن . وقد اجتهد الملوك بهِ ان يعلّمهم فأبى وقال لو قُتلتُ ما علَّمتهُ احدًا ما بقي لي عقب فاما اذا اشرف عقبي على الانقراض فانا اعلّمهُ لمن شئتم (٥ »

---

١) ياقوت في الموضع ذاته

٢) عبد اللطيف في كتاب الافادة والاعتبار الوجه ١٣ طبعة توبينجه

٣) انظر الجزء الاول من كتاب الجامع لمفردات الادوية والاغذية ص١٠٧ طبعة توبنن

٤) هذه كلمات نقلها ابن البيطار عن ديسقوريدس الطبيب لكن في ايامهِ لم يكن البلسان معروفاً الَّا في مصر . وحسبنا قولهُ في هذا الصدد : « البلسان شجر لا يُعرف نباتهُ اليوم بغير مصر خاصة بالموضع المعروف منها بعين شمس » (وجه ١٠٧) . واما ديسقوريدس فانهُ عاش في الجيل الاول للمسيح وابن البيطار في القرن الثالث عشر

٥) اطلب معجم البلدان (٤ : ٥٦٤) . وقد وصف ابن البيطار البلسان الجيّد والطرق التي انها الباعة لغشّهِ فقال : « والجيد منهُ الحديث القوي الرائحة خالصها ليس فيهِ شيء من رائحة الحموضة سريع الانحلال بالماء لَيّن قابض يلذع اللسان لذعاً يسيرًا . وقد يغشّ على ضروب لان من الناس من يخلط بهِ بعض الادهان مثل دهن الحبة الخضراء (البطم) ودهن الحنَّاء ودهن شجرة المصطكى ودهن السوسن ودهن البان والدهن الذي يقال لهُ ماطوبيون وهو دهن الشه . وبعض الناس يخلط بهِ عسلًا وشمعًا . وقد خُلِطَ بدهن الآس او بدهن الحنَّاء حتَّى يرق جدًّا . والسبيل الى معرفة هذا هيّنة وذلك ان الخالص اذا قطر منهُ على صوفة وغسلت بالماء من بعد فليس يؤثر فيهِ . واما المغشوش فانهُ يبقى فيهِ اثر . وايضاً الخالص اذا قُطر منهُ على لبن أجمدهُ والمغشوش لا يفعل ذلك .

وقد تضاربت آراء المؤرخين في المساحة التي غرس فيها شجر البلسان . وعندنا ان اختلاف رواياتهم يتأتى من تباين الازمنة التي عاشوا وكتبوا فيها ومن الايام التي زاروا بها المطرية . ورد في معجم البلدان ما نصه : « وتكون الارض التي ينبت فيها (شجر البلسان) نحو مدّ البصر في مثله يحوط عليه ويتحصّل منهُ في العام مائتا رطل بالمصري : وكتب عبد اللطيف : « البلسان لا يوجد اليوم الّا بمصر بعين شمس في موضع محاط عليه محتفظ به مساحتهُ نحو سبعة افدنة (١ » واخبر رودلف دي سُويشن احد سيّاح القرن الرابع عشر (١٣٣١) : « ان حديقة البلسان صغيرة لا تبلغ مساحتها نصف رمية حجر » . وقال فيلكس فابري في سياحته الى الاراضي المقدسة : (نحو ١٤٨٠) « رغبت ورفقتي برؤية شجر البلسان فتُعنا حتى آب الترجمان من القاهرة فتردّد اولًا ثم دعا البستاني وتواطئنا على اتقاده ستة « دوكات » (٢ وبعض امور نهيا لهُ عن طلبة خاطر وعندئذٍ فُتح بوجهنا باب البستان ورأينا شاهدناهُ في بادئ بدء جميزة قديمة أشمل امامها مصباحان فاخبرنا الترجمان انها شجرة العذراء مريم فاكلنا من ثمرها تبرّكًا وتلونا السلام الملائكي . وقبل ان نلج الحديقة الخاصة بغرس البلسان أرغمنا ثانيةً على اداء مبلغ من الدراهم ثم دخلنا خمسةً خمسةً ووعدنا اننا لا نمدّ يدًا الى شجر البلسان . فلدى تفقُّدنا الحديقة رأينا انها لا تحتوي على اكثر من خمسمائة شجرة لا يزيد ارتفاعها على ذراعين . فقطع الترجمان منها عرقًا وعركهُ بين يديهِ فسالت منهُ دمعة دسمة كالزيت صافية كالماء الزلال وفاح عبيرها الذكي وملأ المكان »

واما طريقتهم في جنى البلسان فقد دقّق عبد اللطيف في تبيانها واليك ما كتبهُ في في هذا الشأن :

والمخالص اذا قُطر في الماء اخثرّ ثم يصير الى قوام اللبن بسرعة واما المغشوش فانهُ يطفو مثل الزيت ويجتمع ويتفرّق ويصير بمنزلة الكواكب . والمخالص على طول الزمان يثخن ويشتدّ » . وبعد هذه الاسطر اخذ ابن البيطار بتمداد منافع البلسان على مذهب الاطبّاء الاقدمين ولا من حاجة الآن الى ايرادها فنضرب اذًا عنها صفحًا

١) وُلد ياقوت الحموي سنة ١١٧٩ وتوفي سنة ١٢٢٩ واما عبد اللطيف فانهُ عاش من سنة ١١٦١ الى سنة ١٢٣١

٢) الدوكة تختلف قيمتها حسب اختلاف البلاد فان كانت ذهبًا فقيمتها تتراوح بين ٩ و ١٠ فرنكات و ١٢ فرنكًا وان كانت فضة فقيمتها تقارب نصف قيمتها الذهبية

« ويُجتنى دهنهُ (البلسان) عند طلوع الشعرى بان تُشدَخ الشوق بعد ما يُجتنَى منها جميع ورقها وشدخُها يكون بحجرة تُتَّخذ محدَّدة ويفتقر شدخها الى صناعة بحيث يُقطع القشر الاعلى ويشقّ الاسفل شقًّا لا ينفذهُ الى الخشب فان نفذ الى الخشب لم يخرج منهُ شيء . فاذا شدخهُ كما وصفنا اهلهُ ريثما يسيل ثاهُ على الورد فيجمعهُ باصبعهِ مسحًا الى قرن فاذا امتلأ صبَّهُ في قناني زجاج ولا يزال كذلك حتى ينتهي جناه وينقطع ثاهُ . وكلَّما كثر الندى في الجوّ كان ثاهُ اكثر واغزر وفي الجدب وقلَّة الندى يكون اللثا اترر . ومقدار ما خرج منهُ في سنة ستّ وتسعين وخمسمائة (١١٩٩م) وهي عام جدب نيف وعشرين رطلًا . ثم تؤخذ القناني فتدفن الى اقيظ وحمارة الحرّ وتخرَج من الدفن وتُجعل في الشمس . ثم تُتفقَّد كل يوم فيُوجد الدهن وقد طفا فوق رُطوبة مائيَّة واثقال ارضيَّة فيُقطَف الدهن ثم تعاد الى الشمس . ولا يزال كذلك يشمسها ويقطف دهنها حتَّى لا يبقى فيها دهن فيُؤخذ ذلك الدهن ويطبخهُ قيمهُ في الحانية لا يُطلع على طبخهِ احدًا ثم يرفعهُ الى خزانة الملك . ومقدار الدهن الخالص من اللثا بالترويق نحو عُشر الجملة وقال في بعض ارباب الخبرة ان الذي يحصلُ من دهنهِ نحو من عشرين رطلًا »

وذكر عبد اللطيف ان البلسان كان يُباع في مكانهِ بضعفهِ فضَّةً

وروى « پروسپير البين » (١ احد العلماء بالنبات ان شجر بلسان المطرية اخذ بالانقراض في ايامهِ فعزم اولياء الامر على تلافي هذه النكبة فاتوا بغراس جديدة من الحجاز لكن القائمين بشأن الحديقة اهملوها فتلف معظمها حتى انهُ في سنة ١٦١٠ لم يبقَ منها الَّا سبعة اشجار (٢ فجرفها فيض النيل (١٦٢٥) وكان ذلك اخر العهد بالبلسان في القطر المصري

هذه خلاصة ما توصَّلنا الى معرفتهِ عن احوال المطرية وآثارها في الايام الغابرة . ويجدر بنا قبل ختام هذه المقالة ان نُطلع القارئ على ما صارت اليهِ في عصرنا

سبق لنا القول ان زائري القدس كانوا يعرّجون على المطريَّة ويعتبرونها ارضًا مقدسةً (٣ وكانت ثمَّ كنيسة للمسيحيين فتوالت عليها الطوارئ وكوارث الدهر

---

١) قضى من حياتهِ اربع سنوات في القاهرة من سنة ١٥٨٠ الى سنة ١٥٨٤

٢) هذا ما رواهُ احد علماء الموارنة وهو جبرائيل الصهيوني ؟

٣) قال الاب ميشال جوليان : قد منحت الكنيسة منذ القِدَم غفران سبع سنوات وسبعة اربعينيات لكل من يتلو الصلاة الربيَّة والسلام الملائكي « قرب نبع العذراء في المطرية حيث سكنت مريم البتول مع طفلها يسوع وخطيبها يوسف » (Apud Mataream (ubi) est : « fons B.Mariæ Virginis et locus ubi habitavit cum puero Jesu et sponso Joseph) هذا ما وجدناهُ في مجموع قديم لزائرين الاراضي المقدسة

فتداعت جدرانها وما لبثت ان اصبحت خرابًا. ثم توفرت المحن على النصارى في الجيل السابع عشر فتبدد شملهم ومع ذلك كان نزر يسير منهم يؤمُّ المطرية جهارًا او خفيةً قيامًا بفرض العبادة نحو العائلة المقدسة. وفي نحو سنة ١٨٨٠ توفق المرسلون اليسوعيون فابتاعوا قسمًا من حديقة البلسان القديمة فشيَّدوا به معبدًا ونصبوا فوق وتاج المعبد تمثال سيدة الانتصار فاحيوا بعملهم هذا ذكر الاجيال الخالية وانعشوا في القلوب عواطف المحبة والعبادة الى السيد المسيح ووالديه القديسين فتألب المسيحيون الى مزار طالما صلَّى به اجدادهم فضاق بهم المعبد الجديد ولذا اخذ المرسلون يعلّلون النفس باقامة كنيسة رحبة تليق بالعائلة المقدسة وتضمّ عددًا وافرًا من الزائرين فشدَّ الرب ازرهم وساعدهم في هذه المهمَّة بعض السراة فبدأوا ببنائها سنة ١٩٠٢ تجاه المعبد القديم فحقَّقت بحسن هندستها وبديع نقوشها امالي الجميع

هذا ما بلغت اليه معرفتنا القاصرة فما كان به صائبًا فرجعهُ الى مصادر الثقة التي اخذنا عنها وما كان مخطئًا فهو من عجزنا وعلى كل حال فانا نرجو من الله ثوابًا ومن القرَّاء الكرام معذرةً وصفحًا

مجمع دير المخلّص

المعقود تحت رئاسة البطريرك اثناسيوس الخامس جوهر سنة ١٧٩٠
تولى نشرهُ حضرة الاب كيرلس شارون الروي الملكي (تابع لما سبق)
تتمَّة الجلسة الخامسة والعشرين

ثم انهُ قد قبل هذا المجمع المقدس ما هو محرر قانونيًا بالمجمع المنعقد من السعيد الذكر البطريرك كيرلس سنة ١٧٥١ ولم يدرج برسوم مجمعنا هذا:

(اولًا) التحديد على جميع المسيحيين ابناء طائفتنا الرومين بعدم تناولهم السر المقدس الَّا بطقسهم حيثما يوجد كنائس وكهنة رومين حسب امر الكرسي الرسولي. (ثانيًا) كل من يتحقق عنهُ انهُ مارس صناعة السحر والتبصير والفال والرمل وغير ذلك ومن عندهُ الكتاب المنسوب لدانيال باطلًا والتقليد بالحمائل والحجب. فمن بعد نصحهِ التام ينادى عليهِ بالحرم ويقرَّر ما دامهُ ثابتًا في غيّه. (ثالثًا) لا احد يقرأ من العامة سفر العدد والرؤيا والنشيد بدون اذن الرئيس الكنائسي خطأً. ومن يتعدى ذلك فليقاصص. وكل من يوجد كتابًا من كتب الخارجين عنا المضادة الايمان المقدس فليأتِ به الى الاسقف حتمًا او الى وكيلهِ من غير ان يقرأهُ. ومن خالف